الشاعر والبطل «هو تشي مين»
في «يوميات السجن»

ناقد، لا يحضرني أسمه الان، قال مرة: الشاعر والبطل توأمان.. وكثيرون هم الشعراء الذين باركتهم البطولة، وكثيرون هم الابطال الذين باركهم الشعر، ولا شك في ان التقاء روعة البطولة بروعة الشعر في رجل: يجعله مخلوقا شبه اسطوري..

والتاريخ يذكر باحترام عميق عددا من ابنائه الذين توفرت لهم الكفاءتان، كفاءة البطولة وكفاءة الشعر .. وبعض هؤلاء ما زالوا على قيد الحياة..

الذي دفعني الى تسجيل هذه الخواطر هو مجموعة شعرية كاتبها فيتنامي واللغة الاصلية التي كتبت بها هي الصينية وجرت ترجمتها الى الانجليزية، وهي أمامي الان في مئة صفحة، متواضعة في طباعتها ومتواضعة في اسلوب عرضها..

اسم المجموعة "يوميات السجن" وصاحبها ليس سوى .. رئيس جمهورية فيتنام الديمقراطية، "هو تشي مين"!

وصدرت عن: دار النشر باللغات الاجنبية في هانوي، واليكم قصة هذه القصائد:

في عام ١٩٤٢ كانت قد انتهت السنة الثانية من الحرب العالمية الثانية .. في الهند الصينية كانت القوات اليابانية تتقهقر.. وكانت قوات الحلفاء تحتل مكانها.. وحين اندفعت القوات الاجنبية الى اراضي فيتنام تشكلت على الفور منظمة المقاومة الشعبية.. واخذت تمارس نشاطاتها البطولية لطرد المحتل الاجنبي..

في احد ايام تلك الفترة القت شرطة حدود الصين القبض على رجل ادعى انه يمثل الشعب الفيتنامي وانه يود مقابلة السلطات الصينية.

كان ذلك في عهد نظام تشيانغ كاي شيك، وجاء الرد السريع على طلب الرجل المجهول، فقد قيدته شرطة تشيانغ كاي شيك والقت به في عتمة السجن الرطبة.

لم يكن ذلك الرجل سوى "هو تشي مين" الذي جاء فعلا، ممثلا للشعب الفيتنامي..

- وأخذ نظام شيك المتعفن يقذف "بهو تشي مين" من سجن الى سجن ثم يخرجه ليفرض عليه الحجر المنزلي، وبعد ان تقلب "هو تشي مين" في حوالي ثلاثين سجنا في الصين وبعد ان ذاق كل انواع المرارة، وبعد ان قاسى كل اصناف الشراسة اطلق سراحه فقطع خمسين كيلو مترا سيرا على الاقدام حتى اجتاز الحدود عائدا الى بلاده ..

لم يعامل "هو تشي مين" في سجون "شيك" معاملة اسير سياسي، ولم يتمتع بشيء من الامتيازات الخاصة التي تمنح لاضرابه من السجناء، فقد قذف به زبانية شيك في اقبية استقبله فيها المقامرون والحشاشون واللصوص ومدمنو الافيون ونماذج اخرى من صادرات العالم السفلي .. والى جانب هؤلاء التقى "هو تشي مين"

بالمرض والقذارة والبعوض والجوع والحمى وكل ما يخطر بالبال من اصناف الشقاء!

في تلك الظروف التي تثير الغثيان والرعب رؤيتها من وراء السطور وتصورها عبر الكلمات، ورغم ايام السجن التي يصفها "هو تشي مين" بانها دائما طويلة، لم يعدم هذا الرجل الرجل اطالة التفكير في بلاده المعذبة، ولم يعدم كذلك تذوقه لعبير الورد وشقشقة العصافير ودفء الشمس!

ففي عفونة السجن المظلم، ومع شخير "زملائه".. كان "هو تشي مين" يحس بخدر الشاعرية يدب في اطرافه دبيب السكر، فتتمتم شفتاه بضع كلمات لا تلبث ان تصبح ابياتا من الشعر. وكانت تراوده الرغبة في كتابة ما ينبض في عروقه من خواطر وعواطف، لكنه لا يجد بدا من التنازل عن لغته الفيتنامية، لان الحراس الصينيين يمزقون كل ما يكتب بغير لغتهم.. فيقوم "هوتشي مين" الى الورق ليسكب عليه حرارة قلبه.. ولكن، باللغة الصينية!

وشعور "هوتشي مين" آنذاك نستطيع ان نحدس به من خلال كلمات الشاعر الجزائري مالك حداد الذي حكم عليه بان يكتب بالفرنسية فصاح من الالم:

"ابي - يا ابي!
انظر الي
الى ابنك
ابنك الذي يلقن ان يقول في لغة غريبة
تلك الكلمات الحلوة التي كان يعرفها
يا الهي!

ما اشد وطاة الظلام في عيني، هذه الليلة!

هكذا اتصور شعور "هوتشي مين" في ليالي السجن الرهيبة، حيث كان يترشف كوب الشاي الذي اعده بنفسه، اذا توفر لديه، ثم يسقي الورق من ذوب اعصابه!

معظم اشعار "يوميات السجن" جاءت في رباعيات، والباقي جاء في مقطوعات صغيرة ورشيقة.

اني اشعر بحماس شديد لترجمة المجموعة كاملة الى العربية، ولما كان ذلك من غير اليسير الان، فلاقصر جهدي على البعض (في شيء من التصرف)، وارجو لكم قراءة ماتعة وسعيدة ..

جسدي في السجن
افكاري ماربة في الافاق الرحبة
لتصيد الاشياء العذبة
فليكن العقل كبيرا ـ صافي الذهن!

*

نزلاء السجن القدماء
تستقبل اعينهم من جدّ من السجناء
والسحب البيض تبدد في الافق السحب الدكناء
والسحب البيض مع السود ابتلعتها الاجواء
وعلى الارض يزج الاحرار الشرفاء
في اعماق السجن السوداء!

*

نللت القمة روضت الجبل الاعسر!
ـ فلماذا اتوقع في المرج الخطر الاكبر؟

صادفت اناسا في سهل ـ فلمانا في سجن اطرح؟

*

في كل صباح تتسلق
شمسٌ جدران السجن المخفور
وترش الباب سهام النور
ويظل الباب الاسود مغلق
في السجن.تغطي العتمة كل الساحات
لكنا ندرك ان الشمس وراء الظلمات
تسخو بالضوء الساطع.باقات.باقات!

*

بعد الظهر يصر الباب الاسود
كي نمنح بعض هواء
فاذا أعيننا تتصعد
في بعض سماء
- ايتها الارواح الحرة في تلك الاجواء
اترى تدرين بانا ارواح من نوعك
تزهق في ظلمات السجن الموصد؟

*

لا خمر .. لا زهر ـ للسجناء
لكن الليلة جد جميلة
فلنحتفل الليلة .. لكن ما الحيلة؟
- امضي للكوة ـ للقمر الساهر
- يبتسم القمر الطيب للشاعر

*

اضواء الصبح تشق الدرب الى اعماق السجن
تجتاح دخانا وضبابا ورطوبة
انفاس حياة تملأ ارجاء الكون
فتشع البسمات المحبوبة
من اوجه كل السجناء!

*

رغم انهم شدوا وثاق ذراعي وساقي
فانني اسمع اغاني العصافير، تغطي الجبل كله
والغابة مضمخة باريج الازهار الربيعية
فمن الذي يستطيع ان يمنعني
من التمتع بحرية، بهذه الاشياء كلها،
هذه الاشياء التي تختصر من الرحلة الطويلة
شيئا من وحدتها

*

اوراق من كتب قديمة، الصقت باوراق من كتب جديدة
ان شرشفا مصنوعا من الورق،
خير من لا شيء على الاطلاق.
ايها الناس الذين تنامون في الفراش الوثير
خلف الستائر الحريرية
هل تعلمون ان في السجون
كثيرا من البشر، لا يستطيعون النوم؟

*

لست شيئا عاليا ـ ولست شيئا بعيدا،
لست امبراطورا ولست ملكا،

ما انت سوى لافتة

تنتصب في طرف الطريق الوعر

من اجل الناس الذين يعبرون

انك تشير لهم الى الجهة الصحيحة

وتحول دون ضياعهم

انت تدلهم على المسافة

التي عليهم ان يقطعوها بعد،

مهمتك ليست مهمة صغيرة

والناس سيذكرونك دائما!

واليوم، ايها الاصدقاء، ذهب بوليس تشيانغ كاي شيك، وذهبت ليالي الثلاثين سجنا المنتنة، وبقي "هو تشي مين"، وبقيت اشعاره!